فصل من تاريخ الأدب

رأيي في الشعر

الحديث

لعبد الرحمن شكري

بعد تركي المكتب بدأت أتعلم اللغة العربية في مدرسة بور سعيد الابتدائية سنة ١٨٩٥ على الطريقة القديمة أي طريقة حفظ الإعراب قبل دراسة قواعد النحو واللغة وكان ذلك بالسنة الاولى الابتدائية فكان الشيخ مصطفى رحمة الله عليه يملي على التلميذ بيتاً من الشعر فيكتبهُ التلميذ الصغير على السبورة ثم يعربهُ الشيخ ويحفظنا إعرابه بالعصا. ونحن لا نفهم معنى ذلك الإعراب لانا ما كنا درسنا قواعد النحو وارجو أن لا تكون قد خانتني الذاكرة في هذا الأمر فاني أريد الإنصاف ولكن الذي اذكره ان هذه كانت طريقته وكان الشيخ يختار الابيات التي تكثر فيها المحسنات البديعية من جناس وغيره. وقد كادت هذه الطريقة تُبَغِّضُ اليَّ اللغة العربية وهي على أي حال قد بغضت اليَّ كتب النحو وطريقة الجناس. الاَّ ان تحفيظنا الشعر في الصغر جعلنا نحب الاطلاع عليه. وقد وجدت في مكتبة ابي كتاب الوسيلة الأدبية للشيخ المرصفي الكبير وكان في الجزء الثاني من كتاب الوسيلة مجموعة صالحة من شعر الشعراء وكان به قصائد كثيرة للبارودي والشعراء الذين احتذى البارودي طريقتهم في قصائد مختلفة مثل الحسن بن هاني والشريف الرضي وغيرهما. وقد أفادني الشيخ المرصفي الكبير لحسن اختياره وسلامة ذوقه وموازنته بين الشعراء وسعة اطلاعه وعلو ذهنه عن التعصب لشاعر واحد أو طريقة واحدة مهما تكن جلية. فاذا كنت مديناً لأحد فأنا مدين للشيخ المرصفي الكبير بما أفادني في كتاب الوسيلة الأدبية ومدين للشعراء الذين اختار لهم. وكنت أقدم من الشعراء المعاصرين البارودي بسبب هذا الكتاب ولم اكن قد قرأت في ذلك العهد شعر شوقي أو حافظ أو خليل مطران ولم أكن قد سمعت بعضهم فاني ما كنت اقرأ الجرائد أو المجلات. وكان اطلاعي على شعراء الوسيلة الأدبية بين سنة ١٨٩٥ و ١٩٠٠ ثم انتقلت الى مدرسة رأس التين الثانوية وكان استاذنا في اللغة العربية الشيخ عبد الحكيم حسن الأختيار والشرح ولا ازال أذكر شرحه لابيات من شعر المعري يصف فيها غديراً وهي قوله :

تَظُنُّ بِهِ ذوبَ المُجَيْنِ فان بدت له الشمسُ أجرت فوقه ذوب عسجد
نبيت النجوم الزُّهرُ في حجراته شوارع مثل اللؤلؤ المتبدِّدِ
فأطْعَنَ في أشباحهنَّ سواقطاً على الماء حتى كدن يُلْقَطْنَ باليد
فَمَدَّتْ الى مثل السماء رقابها وعَبَّتْ قليلاً بين نهر وفرقد

ويعني بالضمير في مَدَّتْ الابلَ في القافلة ويعني بمثل السماء الغديرَ الذي انطبعت فيه صورة النجوم من نهر وفرقد والتي شبهها في البيت الثاني باللؤلؤ في الغدير ووصف الغدير بانهُ اذا سطع عليه القمر ليلاً وسطعت النجوم كان كذوب الفضة وبالنهار اذا سطعت عليه الشمس كان كذوب الذهب. وهذا الاختيار الحسن جعلني أغرى بأحسن ما في الشعر العربي . وكان استاذنا في اللغة الانكليزية المستر ستيفنز لا يقتصر على الكتب المقررة بل كان يشجعنا على قراءة كتب أدب اللغة الانكليزية في طبعة سهلة رخيصة وكان يجمع منا نقوداً ويشتريها لنا فأطلعنا على مجموعة صالحة من الكتب التي كان قد سهَّل طبعها لتلاميذ المستر ستيد صاحب مجلة المجلات الانكليزية . ولم يقتصر على الادب بل كان يشجعنا على اقتناء نسخ رخيصة جداً ومنقحة من الصور الفنية واظن ان المستر ستيد كان ايضاً صاحب هذا المشروع. ومما يدل على تأثري بالبارودي اني رثيته عند موته بقصيدة طبعها خليل بك مطران في مجموعة مراثي البارودي ولا اذكرها الآن. ولكن لا احسب انها كانت ذات قيمة . وقد زاد اطلاعي على الادبين العربي والانكليزي في مدرسة المعلمين العليا وكانت الوزارة قد وزعت علينا كتاب الذخيرة الذهبية في الشعر الانكليزي وكتباً اخرى وكتاب الذخيرة يدل على حسن اختيار وسعة اطلاع وهذه هي الكتب التي تأثرت بها في نشأتي الاولى وقد أطلعتُ المرحوم حافظ بك ابراهيم على قصائد من قصائد الجزء الاول من ديواني في محل حضره فقطن الى اني احتذي شعراء الصنعة العباسية كما في قصيدة البيت الآتي :

عميَ الدجى عن مطلع الفجر في ليلة كخريدة الدهر

وفي هذا البيت احتذاء لقول ابن المعتز

يا ليلة نسيَ الزمان بها اجداثه كوني بلا فجر

وفي البيت :

لا تلحَ مشتاقاً على شجن ان الشباب مطيةُ العذرِ

احتذاء لقول الحسن بن هانىء : (ان الشباب مطية الجهل)

والقصيدة (أتكر أشواقي وأنت دليلها) فيها احتذاء ظاهر لقصيدة الشاعر الذي يقول

(وانت ولا منٌّ عليك حبيبها) وقصيدة (واحة الهوى تعب) فيها احتذاء لقول الحسن بن هاني (حمل الهوى تعب) وقصيدة :

وزلتُ السباق بها فاما ... سبقتُ البرقَ جاريتُ المرادا
بلغتُ بها المدى فلو استزادت ... عُلُوًّا ما وجدتُ المستزادا

فيها احتذاء لقول المعري :

وكم من طالبٍ أمدي سيلقى ... دوين مكانيَ السبع الشدادا
ليَ الشرف الذي يطأ الثريا ... مع الفضل الذي بهر العبادا

والبيت : — أيُهنّدا الغريب بالبلد النا ... زح ماذا دهاك عند الغروب

فيه احتذاء لقول الشاعر ولعله العباس بن الأحنف

يا رحمة للغريب بالبلد النا ... زح ماذا بنفسه صنعا

ولو ان الوزن مختلف . وقصيدة

فكأنّ أزاهر منثورة ... تزف البشر غُرّة الخير تُدي

في بعض أساليبها محاولة احتذاء مسلم في قوله (عاصي الشباب فراح غير مُفنّد) والبيت :

ذكرتُ به ليلاً كأن نجومه ... ثقوبٌ نرى منها الصباح المستّرا

فيه احتذاء لقول ابن المعتز (ثقوب نرى منها الصباح وأنقابا) وقصيدة :

شكوتُ اليه ذلّتي فتحكما ... وأرسلت دمعي شافعاً فتبرّما
وقال له الواشون أنت وصلته ... بعلك طيفاً في الكرى فتظلما
وخبّر أني سوف أخلس نظرة ... اليه فأضحى بالحياء مُلثّما

فيها احتذاء ومعارضة لقول أبي تمام

تلقّاه طيفي في الكرى فتجنّبا ... وقبّلتُ يوماً ظلّهُ فتغضّبا
وخُبّرَ أني قد مررتُ بابه ... لاخلس منهُ نظرة فتحجّبا

وقصيدة: — وكيف ألوم الدهر فيما يريبني ... وأحسن شيء في الزمان عيوبه

في بعضها احتذاء لقصيدة للشريف ومعارضة لها وهي التي يقول فيها :

وإني لعرفان الزمان وغدره ... أبيت ومالي فكرة في خطوبه .

ولم يعب حافظ ابراهيم هذا الاحتذاء وهذه المعارضة بل أثنى عليهما وقال أنهما ينجيان من رطانة الفرنجة وعلى مرّ الزمن قللت من هذا الاحتذاء الظاهر وبقيت في ذهني نصيحة حافظ وأثر الشعر العربي المختار المتنوع الذي احتذيته. وفي هذا الجزء الاول آثر أيضاً لما اطلعت عليه من الشعر الانكليزي مثل قصيدة (تحية للشمس عند شروقها) وقصيدة (حنين الغريب عند

غروب الشمس) وقصيدة (رثاء الحب) وكان ابتدائي للشعر الانكليزي في توليد الموضوعات الجديدة لا في أساليبه. وبعد انتهائي من مدرسة المعلمين سافرت في بعثة الى انكلترا سنة ١٩٠٩ اي قبل حرب العظمى بنحو خمس سنوات وطبعت الجزء الثاني بعد عودتي ولا تغلب عليه نزعة التشاؤم ولا نزعة المذهب الطبيعي ولم أفهم تمام الفهم ما يعني الكاتب بالمذهب الطبيعي. في الديوان قصائد ونظرات في حياة الامم وفي الايمان والقضاء وفي الحياة والعبادة وفي القلق الذي هو مصدر الرقي وفي الجمال والعبادة وصلتهما وفي ضحكات الاطفال وفي وصف البحر وفي معانٍ لا يدركها التعبير وفي لسان الغيب وفي الشاعر وصورة الكمال وفي عيون الندى وفي الانسان والزمن وفي ابتسامات وفي الحسن والآمال النبية وفخر الشباب والايمان بالحياة الخ. ولا يقول ان التشاؤم يغلب عليه الا من لم يتح له الاطلاع عليه او من يتعمد التضليل. وفي الديوان اثر دراسة شعراء مختلفي النزعة فلا يستطيع مطلع ان يقول انهُ تغلب عليه نزعة شاعر واحد او مذهب واحد فان كان فيه تشاؤم وحزن ففيه أمل وسرور وما يصدق على هذا الجزء يصدق على غيره. ومن المشاهد أن الشاعرين الانكليزيين اللذين تأثرت بهما في اول الامر كانا يريان وشلي وكيتس يريان لقوة شعره ويشلي لطموحه الى المثل العليا وهما من شعراء المذهب الخيالي لا المذهب الطبيعي ولولا أن التبسط في الشرح يأخذ من المجلة مكاناً أعظم لتبسطنا

***

كان هذا الشرح التاريخي ضرورة كي استخلص منهُ نصيحة للشبان وهي ان لا يقصروا اطلاعهم على شاعر دون شاعر أو على عصر من عصور الأدب دون عصر وان يكون أساس إطلاعهم الأدب العربي واما الأدب الأوروبي فهو لنا في المنزلة الثانية ولا يكون الأطلاع عليهِ مفيداً الا بعد دراسة الأدب العربي في العصور المختلفة وينبغي أن لا يغترّوا بالنظريات التي يذكرها نقاد يكتبون مقالات مطولة من غير ايراد الشواهد العديدة والأمثلة من شعر ونثر ومن غير نظر الى جوانب الموضوع، وينبغي أن لا يخدعهم قول من يريد تلقيح اللغة العربية بأساليب افرنجية الا ما كان يمكن قوله على سبيل الاستعارات والتشبيهات بحسب أصول اللغة ولو لم يطلع قائله على الشعر الأوروبي، ولا أن يخدعهم قول من يفضّل جمال الدين بن نباتة المصري على عبد العزيز بن نباتة السعدي على طريقة الاول وعظم مرتبة الثاني لان الاول كان مصريًّا ولغته أسهل وأقرب الى لغة الكلام فهذا ليس أجل شيء في الشعر وتعمد جعل لغة الشعر قريبة من لغة الكلام لا يأتي بالسهل الممتنع وإلا ما سُمّي متنبياً فهو ممتنع لانهُ بعيد عن ركاكة وغثاثة وفتور من محاكي لغة الكلام، وأرجو أن لا تخدعهم ايضاً الأزياء التي تذيع في الشعر أو النثر ثم لا تلبث أن تنطوي وتزول كما تنطوي الازياء وربما خلّدت قوةُ الشاعر الممتاز الذي

يكتب على منهج تلك الازياء والعادات المؤقتة قصيدة أو قصيدتين فيهما ثمرة وفكرة وروح من العبقرية والخلود ولكن اكثر شعر هذه العادات المؤقتة يُكنَس كما تُكنَس بقايا الطعام. ومن هذه العادات والازياء التي ينادي بها مذهب الرمزية فكل شاعر يستخدم الرمور ولكن ليس كل شاعر بشاعر رمزي ولا بد أن يذكر الشبان أن الشعر صنعة وأن النثر صنعة وليس معنى هذا القول انهم ينفي أن يثقفوا نفوسهم بالاساليب حتى يصبح قولهم كالكابوس فان الصنعة شيء والتصنع والتكلف أمران آخران ولا يُعرَف الفرق الا بالاطلاع على الصور المختلفة كي لا يعيش الواحد منهم عالة على شاعر واحد قديم أو حديث مهما يكن كثير الأناقة ولا يغرنهم قول من يريد أن يشركالشعر الديني بعض الآراء العامية الحديثة من غير ان تحولها كيمياء النفوس وصنعتها من صيغة العلم الى صيغة الفن ومن غير ان تختمر في وجدان الفنان ومن غير أن يمط ذوقه عنها غشاء البطالة وقلة الاتزان في المناداة بها فان تعصب الشاعر شلي لآرائه الخاطئة للاديان يقل من قيمة فنه وصنعته حتى لدى من لا يؤمنون بالاديان وانما تقل مرتبة شعره عند هؤلاء لا من اجل غيرتهم على الاديان بل من اجل ان بعض التعصب ضد الأديان يفقد الشاعر اتزانه وقدرته الفنية وذوقه. وكذلك كل تعصب لرأي سياسي او اقتصادي قد يفقد الشاعر بصيرته النفسية وذوقه ويقلل من قيمة شعره فالذوق الفني والبصيرة النفسية المتزنة لازمان حتى لشاعر الذي يريد ان يعبر عن شكوك نفسه . وكذلك احذر الشبان مما يسمى بالشعر الحر ويعني به اصحابه قصيدة تكتب اشطرها وأبياتها على بحور عروضية مختلفة وهذا الشعر يذكرني قصة ملك زنجي من اواسط افريقيا ومن رعايا الدولة البريطانية زار لندن عاصمة انكلترا فنظمت له وزارة الخارجية حفلة موسيقية وبعد توقيع الأدوار طلب الملك الزنجي ان يعاد توقيع الدور الاول فوقعه العازفون فقال ليس هذا بالدور الأول فأعادوا توقيع كل الادوار وهو يقول ليس هذا بالدور الاول وأخيراً سكت الموسيقيون للاستراحة وجعل كل منهم يصلح آلته الموسيقية وهو في اثناء اصلاحها يُخرج منها صوتاً يختلف عن اصوات الآلات الأخرى فصاح الزنجي ها هو الدور الأول. والشعر الحر المختلف الأوزان في قصيدة واحدة قصيرة وفي البيت الواحد انما هو من قبيل هذا الدور الاول . وقد بلغ من استهتار بعض الأفاضل انهم يسخرون بمن يتذوق العبارات كما يتذوق الشارب شرابه من اللذة . وربما كان فعلهم هذا من قبيل رد الفعل بسبب مغالاة بعض الشعراء في إثقال شعرهم بكابوس من الاساليب العربية الصحيحة التي ليس تحتها طائل والتي يملؤنها حتى تصير اكواماً تخفي تحتها غثاثة المعنى ونضوب العاطفة . وأنا لست ممن يطري طريقة هؤلاء ولا طريقة الساخرين الذين يتجاهلون ان الشعر صنعة وانما يدفعهم الى هذا التجاهل خوفهم من كابوس التصنع

لقد نشرت في النظم والمقتطف والرسالة قصائد عديدة في المقتطف نشرت قصائد موضوعها الشعر والارتقاء والحق والحسن وقيد الماضي وحواء الخالدة وحالتان للقمر ونشرت في النظم قصيدة في الجهول والخلق العظيم ونشرت في الرسالة قصائد في موضوعات مختلفة وهي مختلفة لاختلاف جوانب القافة الشعرية والنفسية التي انشدها . وبالرغم من اجلالي لخليل بك مطران والدكتور ابي شادي اقول انها ليس فيها احتذاء لطريقة خليل بك ولا تقارب من طريقة ابي شادي في الذوق . واهداني نسخة من ديوان الشريف الرضي للاستاذ المازني سنة ١٩٠٦ يدل على مذهبي في الشعر وان كنت لا اتقاني في اساليب الشريف ولا ارفض ما عداه من شعراء عصره او العصور الاخرى . اما التقارب بيني وبين الاستاذ العقاد في القافة الشعرية فسببه اطلاعنا على ثقافة واحدة كما اوضحت . وقد فسر بعض الادباء شيئاً من قولي على غير ما اردت فقصيدة (بين الحب والبغض) في الجزء الثالث وهي القصيدة التي القى عنها الاستاذ المازني محاضرة كما ذكر لي في حطاب انما هي دراسة نفسية اغرت بها ابيات لجميل بن معمر الشاعر العربي يقول فيها (رمى الله في عينيّ بثينة بالقذى) وقصيدة (ليتني كنت انسياً) في الجزء الثاني اغرى بنظمها الاطلاع على الخرافات الافرنجية والتأثر بقدوة هي الشاعر الالماني وهي ليس فيها تمجيد لمثل ذلك الانسان الراغب في صلاح الكون لانه لم يصلحه وفيها تمجيد للفنون ومسراتها ولكن صرف النفس عن الاحاسيس الاخرى غير الفنية مقصوداً كما وصف في هذه القصيدة وكما وصف تيسون الشاعر الانكليزي في قصيدة (قصر الفن) . وكذلك يأبى بعض الافاضل الا ان يسيء تفسير قصيدة (حُلُم بابلث) وهي سخر بعيوب النفس الانسانية من تقاتل وتنافس ولمثل هؤلاء الافاضل اقول اقرأوا قصيدة (صوت الله) و(الفلك الدائر) و (الارواح الطليقة) و(سجن النفيلة) و(زورة الملائكة) و(الملك الاعلى) و(صلاة مؤمن) و(الكونتن) و(الامل) . والظاهر ان القارىء لا يأخذ من قول القائل الا ما يشاء لغرض في نفسه ثم يفسره بما تشاء اهواؤه والا ما ترك قارىء قصيدة (الباحث) وغيرها من القصائد التي تدل على طموح الى المُثُل العليا وعلى امل في الحياة والانسان وما تنافى احدٌ عن ان الامتعاض والسخر قد يكونان مظهراً من مظاهر الأمل والرجاء ولما ترك القارىء قصائد عديدة في مذاهب جويتي او برونتج الثقافية وتشبث بقصائد فيها وصف خفيف لمقاصع النفس الانسانية على طريقة سوينبورن

***

هذا ولست ممن يدعي لنفسه العصمة من خطأ اللفظ أو العقل او النفس ولو اني طبعت شعري لحذفت منهُ اشياء لاقية لها ، او يُساء بها الظن على نحو ما اوضحت في هذا المقال

ولعلَّ من تمام الفائدة والحجة ان نذكر شواهد أخرى من الجزء الاول للدلالة على ما كان من احتذاء العباسيين في صناعتهم ولابطال زعم الناقد الفاضل في الجزء الاول قصيدة عنوانها (شكوى) منها :

ومُطَلِّبٍ بالعتب هجريَ لم أزل ... أداريه حتى عارضتهُ سَذاهِبُهْ
يعالج مني باسم الثغر راضياً ... وأُخبُرُ غِرًّا أنكرته مغالبُهْ
أجود بنفسي في هواه سماحة ... ويبخل بالزور الذي أنا طالبُهْ
وما كل أمر تستقيم صدوره ... لمن لم يَرُضْهُ تستقيم عواقبُهْ
لقد سامني ان أقبل الذل خلة ... هل الذل الاَّ ما تُمَلُّ مطالبُهْ
وكلَّل بي الإعراض حتى ألفتهُ ... وما كل صافي الوجه تصفو مشاربُهْ
وليلٍ كأخلاق الحليم ادَّرَعْتُهُ ... لأقضيَ او تنجاب عني عياهبُهْ

وفي هذه القصيدة احتذاء لقصيدة لبشار على الوزن والقافية والروي وفيها دعوة أيضاً الى التسامح في الاخاء وهي التي يقول فيها

اذا كنتَ في كل الأمور معاتباً ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبهُ
اذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئتَ وأي الناس تصفو مشاربهُ

***

ولعلَّ ناقداً يقول كيف يتَّفق الاحتذاء وارضاء مطالب النفس وهذا الناقد يعلم ان الاحتذاء شيء والنقل والاخذ بالنص أو شبه النص شيء آخر . والاخير هو الذي لا يُرضي مطالب النفس والوجدان . وفي قصيدة (خداع النواب) في الجزء الاول وصف الطبيعة منها

نسمات الربيع تخفق كالعتـــب برفق فيضلّ اللبيب الخبير
فهي تغدو ما بين غصنٍ نضير ... فتن حسنه وغصنٍ نضير
كالرسول الاديب بين محب ... وحبيب أو كالحكيم المشير
يعقد الصلح في أناةٍ كما يعقد رب النُّهى قضاء الامور
وضياء الشمس المنيرة كالبشر ... اذا ما احتواه وجه البشير
وهناك الطير المغرّد كالشاعر ... يتلو مجد الزمان النضير
نغمات لم يحْوِها المطربُ البارع ... الاَّ دعـــوى نفاق وزور

الخ . وفي اعتذاء لقصيدة المعري التي يقول فيها : —

نعي لخان في زوجة خضراء تشهق بزاره متور
وغدت كل ربوة تشتهي ارقص بثوبر من النبات نضير

وفي القصيدة بعض قوافي المعري نفسها وهي فاق وزور من قول المعري (دعوى شقاق وزور) وتشبيه النسيم بالعتب فيه التفات الى قول جحظة (عتاب بين جحظة والزمان) . ومن فكاهات النقد ان ناقداً انتقد في قصيدة رثاء مصطفى باشا كامل قوله (وانثى دانية والمجد عالي) وقال هذه عبارة تموزها الفخامة قلت هي من قول شاعر الفخامة الشريف الرضي : (قالبُنى وافية والمجد عالي) في قصيدة له في الرثاء وزعم ناقد آخر ان عبارة (الأمل المنصول) انكليزية قلت هي من قول ابي تمام

كانت لكم اخلاقه مسولة فتركتموها وهي ملح علقم

وقد استخدمها البحتري وغيره اكثر من مرة في وصف الآثار والاحلام والايام والليالي الخ وفي الجزء الاول قطعة عنوانها (غسالة الصهباء) منها :

فتشى الخياط في الخمر حتى حجبته غسالة الصهباء

والمراد احمرار كحمرار الخمر وهذا احتذاء غسالة خمر في قول ابي تمام

خدش الماء جلده الرطب حتى خلته لابساً غسالة دكن

***

هذه الشواهد تدل على منشأ ثقافي في الادب العربي كما ان قصيدة (يرمون) شاعر المذهب الخيالي في الجزء الأول تدل على منشأ ثقافي في الأدب الانكليزي وهي التي قلت فيها :

تقول فولا قُذى الدمع من شجن كأنَّ قلبك مدارٌ على العبر
ألبسته من سواد الحزن عافية فخلتها من سواد القلب والبصر

ورثاء البارودي فيه دلالة اخرى كما ذكرت . ولحافظ ابراهيم نفس على الادب المصري حتى ان شوقي بك نفسه في اول امره لم يكن يتذوق الأساليب ويتوخى الاناقة حتى خشي على شعره من نبوغ حافظ واشتهاره بتذوق الأساليب فجاراه شوقي وجاراه مطران . وقد اتممت معرفتي بأقوال جوبي الإفاني وقدوته ما بدأته معرفتي بسمة اطلاع الشيخ المرصفي الكبير في كتاب (الوسيلة الادبية) من توخي الثقافة المتعددة الجوانب وهذا موضوع يستلزم مقالاً آخر لاثباته بالشواهد والأدلة وما كتبهُ